

مكانة الغزالي في تاريخ الحضارتين العربية والانسانية

فريد جحا

للمؤرخين تجاه الغزالي، كما هو حالهم تجاه كل عظيم، مواقف كثيرة ومختلفة، فبينما نقل المناوي عن القطب الياضي عن بعض العلماء الجامعين بين علم الظاهر وعلم الباطن أنه قال : «لو كان نبي بعد النبي لكان الغزالي»⁽¹⁾ جعله ابن الجوزي بين الذين لبس عليهم إبليس، حين دفعه الى تصنيف كتاب الاحياء «على طريقة القوم (أي المتصوفة) وإلى ملئه بالأحاديث الباطلة وهو لا يعلم بطلانها»⁽²⁾ وبينما قال رينان «إن الغزالي هو الوحيد بين الفلاسفة المسلمين الذي انتهج لنفسه طريقا خاصة في التفكير الفلسفي»⁽³⁾، ورأى مكدونالد «أنه قد أعاد الاسلام إلى حياته الأولى»⁽⁴⁾، ألح ابن تيمية في خصومته وكتب الفصول الطوال في نقده، وتعقب المآخذ عليه⁽⁵⁾.

ولقد غالى كثير من الناس في مدحهم الغزالي، وغالى آخرون في قدحهم عليه، وليس هذا غريبا فأورع الناس وأتقاهم وأعلمهم من لا ينظر الناس كلهم إليه بعين واحدة ترضى أو تسخط.

على أن الغزالي لم يعدم من اعتدل في الحكم عليه ودراسته دراسة علمية تحله المكان الصحيح اللائق به في تاريخ الفكر العربي والانساني. وسنحاول نحن هنا، أن نكون مع هؤلاء الآخرين، فنقدم، بهدوء وروية، تقويما موضوعيا للغزالي يبين ما له وما عليه، لانه على الرغم من عظمته وآثاره الكثيرة، وأثره الكبير فيمن أتى بعده، انسان يخطيء ويصيب، وهو قد أصبح ملكا للأجيال تقول كلمتها فيه.

-
- (1) الياضي اليماني، وفي كتابه : امرأة الجنان وعبرة اليقظان، أوردته عبد الكريم العثمان في سيرة الغزالي وآراء المتقنمين فيه، ص 84 وما بعد، وينظر كذلك أحمد فريد الرفاعي، الغزالي، ج 1، ص 208، ومقدمة (أيها الولد) لجورج شيرر، ص (هـ).
 - (2) ابن الجوزي، تلبس إبليس، ص 166.
 - (3) جميل صليبا وكامل عياد، مقدمة كتاب المنقذ من الضلال ص (و).
 - (4) أحمد الثريايصي، المصدر السابق، ص 7.
 - (5) أحمد فريد الرفاعي، المصدر السابق، ج 1، ص 185.

1 - شخصية الغزالي متعددة الجوانب، رحية الآفاق، فهو حكيم ديني، وفيلسوف واقعي، ومفكر وضعي، ومصلح اجتماعي، ومهذب صوفي⁽⁶⁾.

2 - ولقد امتاز بتنوع مؤلفاته وغزارة إنتاجه، وكانت فكرته في كل ما صنف تعبيراً صادقاً عن حياته المتطورة، وتجاربه الروحية العميقة. «الغزالي حجة الإسلام في العلوم الكلامية، وهو أشد الناس انتقاداً للمتكلمين، وهو إمام العراق في صناعة الفتوى، وأقلمهم يقينا بصحة هذه البضاعة، وكان أكثر من تعمق الفلسفة في أواخر القرن الخامس للهجرة، وأقوى من نقض العلوم الفلسفية. وكان متصوفاً مخلصاً، إلا أنه عاش قسماً كبيراً من حياته بعيداً عن الحياة الصوفية»⁽⁷⁾.

3 - والغزالي عند بعضهم «من فئة أنصار الاثبات العقلي، إذ إنه لا يختلف عن أشد الاثباتيين العقليين في موقفه من قيمة العقل على الإطلاق، إلا في اعتقاده أن العقل يفتقر إلى معونة عقلية في حالتين : أولاً لشفائه من مرض الشك بنفسه، وثانياً لتنبهه وإرشاده إلى العلوم، التي لولا الوحي، لما فطن لحقائقها، ولا اهتدى إلى تعاليمها»⁽⁸⁾.

4 - وحالة الغزالي لا تشبه حالة عامة الفلاسفة ولا خاصتهم، وموقفه لا يماثل موقف عامة الصوفية ولا خاصتهم، فالنظر لديه من أجل العمل، والعمل لديه طمانينة النظر. وهو لم يقنع بالنزعة العقلية الجافة، ولم يجتزئ بالنزعة الروحانية الخالصة⁽⁹⁾.

5 - اعتبر الغزالي نفسه مسؤولاً عن المنطق وعن الأخلاق، مطالباً بهذه المسؤولية أمام الإنسانية والناس، فاجترأ على الاضطلاع بأعبائها ووقاها حقها بما ليس بعده من مزيد، إذ بذل لها عسارة فكره ودم فؤاده. دفع هذا الموقف أحد دارسي الغزالي إلى تخليده باعتباره أول رائد للكتاب المعتنقين⁽¹⁰⁾ : Les écrivains engagés^(*).

6 - لم يعيش الغزالي طويلاً فلقد ولد عام 450 هـ / 1056م وتوفي عام 505 هـ / 1111م ولقد خلف مع ذلك نتاجاً ضخماً من المؤلفات التي قيل : إنها لو وزعت على أيام عمره لأصاب كل يوم فيها أربعة كرايس⁽¹¹⁾. ولقد نسب إلى الغزالي، كما نسب إلى أرسطو، حشد هائل من المؤلفات بلغ عددها أكثر من اربعمائة وسبعة وخمسين، بين صحيح في نسبه، ومشكوك فيه، ومتأكد من انتحاله⁽¹²⁾.

(*) ترجمت هاتان الكلمتان بعد ذلك بكلمتي : الكتاب الملتمزمين.

(6) أحمد الشرباصي، المصدر السابق، ص 20.

(7) عبده الحلو، الغزالي، ص 7.

(8) كريم عزقول، العقل في الإسلام، ص 113.

(9) حكمت هاشم، الكتاب السنوي لجامعة الأبحاث، ص 151.

(10) حكمت هاشم، المصدر السابق، ص 152.

(11) الشرباصي، المصدر السابق، ص 134، وحكمت هاشم، المصدر السابق، ص 146.

(12) عبد الرحمن بدوي، مؤلفات الغزالي، ص 9.

7 - شغلت قضية مؤلفات الغزالي المؤرخين والدارسين من عرب ومستشرقين، وأشير الى ما فيها من أخطاء في نسبتها إليه منذ القديم، لذلك عكفوا عليها، ليبينوا ترتيبها التاريخي من جهة، وصحة نسبتها إلى الغزالي من جهة ثانية.

بدأت دراسة مؤلفات الغزالي في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي حين كتب (ر. غوشه R. Gosche دراسة عن حياة الغزالي ومؤلفاته طبع في برلين 1858، وفيه تناول بالبحث أربعين مؤلفاً للغزالي وحاول أن يحقق صحة نسبتها إليه⁽¹³⁾)، وانتهت هذه الدراسة بالكتاب القيم الذي صنفه الدكتور عبد الرحمن بدوي في عام 1961 بعنوان : (مؤلفات الغزالي)، والذي حقق فيه نسبة 457 رسالة وكتاباً إليه فقسّمها الى :

- أ) كتب مقطوع بصحة نسبتها إلى الغزالي (من رقم 1 الى رقم 73).
- ب) كتب يدور الشك في صحة نسبتها إلى الغزالي (من رقم 74 الى رقم 95).
- ج) كتب من المرجح أنها ليست للغزالي، معظمها في السحر والطلسمات والعلوم المستورة (من رقم 96 الى رقم 127).
- د) أقسام من كتب للغزالي أفردت كتباً مستقلة وكتب وردت بعنوانات مغايرة (من رقم 128 الى رقم 224).
- هـ) كتب منحولة (من رقم 225 الى رقم 273).
- و) كتب مجهولة الهوية (من رقم 274 الى رقم 380).
- ز) مخطوطات موجودة ومنسوبة الى الغزالي (من رقم 381 الى رقم 457)⁽¹⁴⁾.

وعني كثيرون بين عامي 1858 و 1961 بقضية مؤلفات الغزالي بينهم مكدونالد، وغولد زيهر، وغيردندر Gairdner، وماسينيون، ووات، وجورج حوراني. ونخص بالذكر منهم الأب بويج Bouyges الذي صنع (الترتيب التاريخي لمؤلفات الغزالي) كتاباً أكمله (ميشيل ألار) في كتاب مطبوع عام 1959 بعنوان : Essai de chronologie des œuvres de Al-Ghazali (Algazel) édité et mis à jour par Michel Allard, Imprimerie Catholique, Beyrouth 1959.

8 - وهكذا وجدنا بين أيدينا، بعد صدور كتاب الدكتور بدوي، قائمة كاملة بهذه المؤلفات ما صح منها، وما شك فيه، وما قطع في خطأ نسبتها إليه، وأصبح بالإمكان دراستها.

وأكثر آثار الغزالي هامة، ولكن أهمها ما كان قريباً من الفلسفة والفكر وهي :

المنقذ من الضلال، ومقاصد الفلاسفة، وتهافت الفلاسفة، ومعيار النظر، وميزان العمل، وإحياء علوم الدين.

(13) عبد الرحمن بدوي، المصدر السابق، المقدمة، ص 9.

(14) عبد الرحمن بدوي، المصدر السابق، من ص 9 الى ص 18.

ولنسجل أن كثيرا من هذه المؤلفات قد ترجم الى اللغات الاوردية والتركية والفارسية واللاتينية والالمانية والاسبانية، وأن أحدها وهو (أيها الولد) قد نقل الى الفرنسية ضمن (مجموع الروائع الانسانية) التي اختارتها منظمة الامم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (الاونيسكو)، وصدر عن اللجنة الدولية لترجمة الروائع.

9 - ويعد المنفذ من الضلال، الى عهده، كتابا فريدا من الثقافة العربية، ووحيدا من نوعه في الأدب العالمي، ومنقطع الشبه في مؤلفات الدين، لأنه قصة حياة فكرية وصورة نفس في نزاع مستمر وبحث دائب عن الحقيقة، بل قصة الشكوك والهواجس النفسية المضطربة المتدافعة، ثم نفحات الايمان واليقين المنعشة المشجعة، إنه صورة النفس العائدة إلى الايمان، بعد درجات متلاحقة متنوعة من الشك واليقين، واليقين والشك، إلى أن استقرت النفس أخيرا عند إيمان ثابت مكين⁽¹⁵⁾.

ويرى البعض أن كتاب المنفذ من الضلال وثيقة نفسية ذات قيمة عظيمة⁽¹⁶⁾، ويرى بعض آخر أنه لم يمر عالم قبل الغزالي يمثل ما مر به هذا المفكر من مراحل الشك، والنقد والنقد الذاتي⁽¹⁷⁾، فهو قد سجل أزمته في المنفذ الذي يعتقد أحد مؤرخيه أنه «من أجل كتب التراجم الذاتية وأغناها، بالافصاح عن خوالج الوعي الباطن والمشاهدات الداخلية العميقة» حتى انه ليفوق عنده في خصبه وجماله اعترافات (القديس أوغسطينوس) أو منهاج (ديكارت) وتأملاته⁽¹⁸⁾.

أما التهافت فأعظم كتبه تأثيرا، لقد استعان فيه على العقل بجميع فنون العقل، واستخدم الصوفي المسلم فيه الجدل الفلسفي (الذي لا يقل دقة عن جدل كانت)، ليثبت أن العقل يؤدي الى التشكك في كل شيء⁽¹⁹⁾. وهو اعتراف من الغزالي بأن الفلسفة لا تصلح لان تكون قاعدة للدين أبدا، فالدين في جوهره امتحان روحي وداخلي للانسان، وإشراق يلم بالمؤمنين، السالكين طريق الصوفية⁽²⁰⁾.

وأجود تقويم لكتابه (مقاصد الفلاسفة، وتهافت الفلاسفة) ما سجله الدكتور ابراهيم مذكور حين قال^(20 مكرر) : «ومقاصد الفلاسفة من الكتب التي ترجمت في عهد مبكر على يدي (غولد سالينوس)، وهو عرض واضح لفلسفة ابن سينا، شاء الغزالي أن يمهد به لحملته على الفلاسفة كما نص على ذلك في مقدمته. ويظهر أن هذه المقدمة، وإن كانت قد ترجمت الى

(15) أحمد فريد الرفاعي، ج 1، ص 172 - 173.

(16) كارادوفو، الغزالي، ترجمة زعيتو، ص 44.

(17) عز الدين اسماعيل، الغزالي، ص 66.

(18) حكمت هاشم، المصدر السابق، ص 148.

(19) ويل ديورانت، قصة الحضارة، الترجمة العربية بقلم بدران، الجزء الثالث عشر، ص 362.

(20) عز الدين اسماعيل ورفاعة، الغزالي، ص 76.

(20 مكرر) : ابراهيم مذكور، مقالة الفلسفة في كتاب أثر العرب والاسلام في النهضة الأوروبية، ص 172.

اللاتينية لم تقع في أيدي كثيرين فعزوا الى الغزالي كل ماورد في هذا الكتاب، وعدّوه واحدا من المشائين العرب، ولم يفت هذا الخلط (روجر بيكون)، فأشار اليه صراحة. وعلى كل حال، أعان كتاب (مقاصد الفلاسفة) اللاتين على فهم الفلسفة الاسلامية وعرضها أمامهم عرضا واضحا.

أما كتاب (تهافت الفلاسفة) الذي يشتمل على أعنف حملة على الفلسفة عرفت في التاريخ، فإنه لم يترجم الى اللاتينية، إلا في أخريات القرن الخامس عشر، ولم يقد منه رجال القرن الثالث عشر عن طريق مباشر. وكل ما قد يكونون وقفوا عليه انما هو شذرات استمدها منه (ريمون مارشان) وسجلها في كتابه Pugiofide الذي يشير الى كتب غزالية أخرى لم تترجم وليس ببعيد أن يكون القديس توما قد وقف على شيء من ذلك، وأفاد منه في كتاب (الخلاصة في الرد على الأمم). والغزالي في اثباته لعلم الله وقدرته وإرادته، وقوله بخلق العالم من عدم، أقرب ما يكون إلى علماء اللاهوت المسيحيين».

وإحياء علوم الدين كتابه الثامن والعشرون⁽²¹⁾، وهو أضخم كتبه، وأكثرها جمعا للمعلومات، ويقع في عدة مجلدات، فسّمه الى ما سمّاه (الريع) فكان أربعة أرباع : واحدا للعبادات ... وآخر للعبادات، وثالثا للمهلكات، ورابعا للمنجيات⁽²²⁾، وفي كل ربع عشرة كتب، فيكون الكتاب كلّه أربعين كتابا⁽²³⁾.

ويعترف الغزالي بأن الناس قد صنفوا في معاني الاحياء كتباً، إلا أن كتابه متميز عنها بخمسة أمور :

- 1 - حل ما عقدوه وكشف ما أجملوه.
- 2 - ترتيب ما بددوه ونظم ما فرقوه.
- 3 - إيجاز ما طولوه وضبط ما قرروه.
- 4 - تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الأفهام، ولم يتعرض لها في الكتب اصلا⁽²⁴⁾.

والاحياء أوسع كتب الغزالي شهرة، وأعلها مكانة، وأولها على طريقته في المزج بين الفقه والتصوف، وبين التفكير والتهديب. وإذا ما كان هناك من أخذ عليه ترخصه في رواية بعض الأحاديث الضعيفة، أو روايته لبعض القصص التي تحتاج الى نظر، أو سرده لبعض ألوان المبالغة في بعض الزهديات أو الأخلاقيات، فإن كثيرين وكثيرين قد أغرموا بهذا الكتاب، وهاموا به حبا، حتى كتبوا نسخة بأيديهم تبركا، وقالوا فيه من عبارات التمجيد ما يعتبر نوعا من

(21) عز الدين اسماعيل ورفاقه، الغزالي، ص 57.

(22) احياء علوم الدين، طبعة دار الشعب، ص 3.

(23) فنمنا فيما سبق عناوين الكتب، وهي منكورة في مقدمة الاحياء، ص 3 و 4.

(24) الاحياء، ص 5.

المبالغة أو الاسراف في المديح، فهذا النووي يقول : «لو عدمت كتب الاسلام، وبقي الاحياء، لأغنى عما ذهب»⁽²⁵⁾.

ولم تقتصر العناية الكبيرة بهذا الكتاب على السابقين بل نرى المتأخرين من الائمة والعلماء يواصلون العناية به، فيطبع طبعات كثيرة، ويترجم إلى عدة لغات، ويهتم به العلماء أمثال الامام محمد عبده الذي سأل أحد تلاميذه عندما عين لمنصب الافتاء في السودان : «هل صحبت معك كتاب إحياء علوم الدين للغزالي؟»⁽²⁵⁾.

وقد كثر مختصروه، وكثر شراحه، وأهم من فعل ذلك المرتضى الزبيدي في كتاب ضخمة كبير سماه (إتحاف المتقين بشرح أسرار علوم الدين) وهو يقع في عشرة مجلدات ضخمة.

10 - ولقد ملأ الغزالي الدنيا وشغل الناس في عصره وبعد عصره، فكثرت دارسوه وشارحو كتبه ومؤرخو حياته، وقد صنفنا قائمة الدراسات الغزالية التي قارب عدد عناواناتها الاربعمائة، مكتوبة باللغات العربية والفارسية والاوردية والتركية، إضافة الى الفرنسية والانكليزية والالمانية والاسبانية. وتوزع دارسو الغزالي على بقاع الارض من الهند شرقا الى الولايات المتحدة غربا فكان فيهم من القدماء الواسطي والسبكي وابن شهبة وابن عساكر وابن الجوزي وسبط ابن الجوزي وابن كثير والعيني وابن خلكان والصفدي والذهبي وابن خلدون وابن العربي وابن الملقن والمنائوي وطاشكيري زادة والعيد روس، وابن العماد. أما المحدثون فأكثر من أن نشير اليهم، حسبنا أن نعيد من يريد الوقوف على أسمائهم الى قائمة الدراسات الغزالية التي افترضنا بها كتابنا عن الغزالي وأن نسمي بعضا من أسماء المستشرقين الذين كتبوا عنه فنجد بينهم، غوشه ومكدونالد وبلاثيوس ودوفو وبويج وغولد زيهر وغيرهم كثير.

11 - والغزالي المفكر الوحيد الذي لم يكتف، مثل علماء الكلام، باقتباس عدة مباحث متفرقة للفلاسفة، وبمحاولة نقض بعض آرائهم، بل قام يسعى لتهديم كل أرجاء ذلكم البناء الذي أرساه الفلاسفة العرب والمسلمون على أساس الفلسفة اليونانية. ولقد بدأ أولا بشرح جميع غاياتهم، ثم حاول إظهار ضعف براهينها، وقد نجح في ذلك إلى حد كبير في كتابيه مقاصد الفلاسفة، وتهافت الفلاسفة⁽²⁶⁾.

لقد انتصر الغزالي بإيمانه، وبشخصيته، وما كان لرجل أن ينتصر في تلك المعركة الا بإيمان لم يهن، بل يلهم، وبشخصية حملت جيلها، والأجيال اللاحقة، على إجلالها، والإيمان بما أنتت به⁽²⁷⁾.

(25) أحمد الشراصي، المصدر السابق، ص 142.

(26) صليبيا وعياد، مقدمة المنقذ من الضلال، ص (ك).

(27) طه عبد الباقي مرور، الغزالي، ص 213 ننلا عن مكدونالد.

ولقد رأى مكدونالد : «أن الغزالي قد عاد بالناس من الجري في أثر النظريات، والجدل والمنطق والفقه والعلوم الدينية واختلاف المذاهب والفرق، إلى الحقيقة والاتصال الملابس للدين والكتاب والسنة، بل إلى روح الدين وذاته وجوهره. لقد أدخل في وعظه وتعاليمه عنصر الخوف، وألقى الرعب والوجل في نفوس العامة، معلنا أن الامر لم يعد يستوجب الملاينة. وهو قد أوصل الصوفية بفضلته ونفوذه وتأثيره إلى مكان ثابت وطيد في الاسلام، وكان أول من أدنى الفلسفة، وقرب بحوثها الدينية (الالهيات) من متناول الذهن العادي، بينما كانت قبله محفوفة بالأسرار. فالتهافت إنما كتب للعموم، وهذا ما أغضب ابن رشد، وأحفظه على الغزالي ودفع به إلى نقده والتحامل عليه، وجعله يحبز إحراق كتبه⁽²⁸⁾، فبدا بذلك أرسنقراطي الفكر، يريد من الدولة أن تتدخل بسلطانها لتمنع تناول موضوعات الفلسفة في الكتب المؤلفة للعامة ولتصادر انتشار التواليف الفلسفية وتعمل على وقف ذيوعها»⁽²⁹⁾.

12 - ولا بدّ من أفراد قسم خاص من هذا البحث للحديث عن الشك لدى الغزالي. فالشك نقطة الابتداء في تفكيره، وقد مرت بثلاث مراحل :

1 - الشك في العلم الموروث : وقد أثاره فيه إمام الحرمين الذي أيقظ في نفسه الحاجة إلى التفكير الشخصي.

2 - الشك في الحسيات : فلقد نظر بنور العقل في كل شيء، ووصل إلى معيار خاص يقول بأن كل معرفة لا تتوفر فيها الشروط المثبتة في حد اليقين ليست يقينية ويجب رفضها.

3 - الشك في العقليات : إذ لا ثقة أولاً بالعقليات التي هي من الاوليات، فقالت المحسوسات بم تأمن من أن لا تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات ؟ وهكذا تزعزعت ثقة الغزالي بالمعقولات أيضا أمام هذا التفكير⁽³⁰⁾.

الا أنه عاد بعد هذا إلى الصحة والاعتدال «ولم يكن ذلك بنظم دليل ولا ترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر»⁽³¹⁾.

كان الشك في حياة الغزالي مأساة عنيفة اختلجت في صدره، فصارعته وصارعها، وغالبته وغالبها، إلى أن ظفرت به قبل أن ينتهي إلى الظفر بها، واضطرتته إلى هجر منبره طلبا للخلو بنفسه، والتماسا للفراغ إلى تجربة نفسية صعبة معقدة عسيرة، كشفت له عجب الحقيقة التي خفيت عليه، ووصلت به إلى كنه اليقين الذي يبتغيه.

ساورت معضلة المعرفة نفوس الفلاسفة، منذ فجر التفكير إلى يومنا هذا، حتى أن تاريخ الفلسفة ليكاد يكون تاريخا لمعضلة الشك واليقين، إلا أن واحدا لم تبلغ الأزمة النفسية المستولية

(28) الرفاعي، الغزالي، ج 1، ص 213 نقلا عن مكدونالد.

(29) أحمد فريد الرفاعي، المصدر السابق، ص 20، ج 1.

(30) كريم عزقول، المصدر السابق، ص 58 - 69.

(31) كريم عزقول، العقل في الاسلام، ص 70 نقلا عن المنقذ من الضلال.

عليه من جراء معضلة المعرفة نفس الحدة التي بلغتها لدى الغزالي. فلقد عاش هذه الأزمة على أقصى ما يكون عيش من الشدة والعنف، وحييها من الباطن، في حين اكتفى غيره بالنظر اليها من الظاهر⁽³²⁾.

ولقد سجل الغزالي بشكه ظاهرة فكرية قدرها فيه واكبره من أجلها رجال الفلسفة. لقد حاول الغزالي بهذه الظاهرة أن يؤسس دعائم قوية يقيم عليها بناء المعرفة سليما قويا :

- (أ) فلقد وضع للمعرفة منهجا قويا.
- (ب) وللعلم حداً دقيقاً يخلصه من عناصر الغموض واللبس.
- (ج) وأظهر استحالة الوثوق بالعقل عن طريق العقل نفسه.
- (د) وضرب أمثلة جديدة بالاعتبار لبيان إمكان خطأ العقل في أحكامه، وأخرى لبيان إمكان خطأ الحواس.
- (هـ) ورد أساس المعرفة إلى الإلهام لا إلى العقل.

وبهذا يكون الغزالي قد سبق (ديكارت) مؤسس الفلسفة الحديثة في رسم طريق قديم للمعرفة، وفي تحديد مكانة العقل والكشف عن جوانب القصور فيه. ولقد كان (رسل) واضحا في مشابته الغزالي في تجويز وجود للعالم مماثل لوجود الأشياء التي تظهر في رؤيا الحالم، أشياء لا وجود لها في عالم الواقع⁽³³⁾.

جمع الغزالي كالقديس أوغسطينوس، الشك إلى اليقين، والجدل العقلي إلى التجربة. انه كسقراط الذي كان أول من فتح باب الشك واسعاً، ولكنه أشد الناس تأكيداً على وجود الحقيقة، وضرورة اكتشافها اكتشافاً شخصياً، لا أخذها نقلاً وتقليداً⁽³⁴⁾.

13 - وكما تشابه الغزالي وديكارت في أمر المعرفة فقد تشابها أيضاً في أمر آخر، هو موقف العقل من الوحي⁽³⁵⁾، وتشابه كذلك مع أرباب الوضعية الحديثة في جانبين، وخالفهم في ثالث. لقد وثق بالعلوم الصورية من منطقية ورياضية، واعتبر المعرفة التجريبية ترجيحية لا تبلغ مرتبة اليقين، وخالفهم في موقفه من (ما وراء الطبيعة) فهو قد ردها إلى خبر النبي المعصوم، الذي يمكن تلقي الغيبيات عنه⁽³⁶⁾.

وليس المهم عند بعضهم أن يكون ديكارت وهاملتون ورسل وأصحاب الوضعية الحديثة، قد قرؤوا للغزالي في لغته، أو قرؤوا عنه مترجماً إلى لغاتهم، وإن كان ذلك أمراً جد خطير يهتم له تاريخ الفلسفة، إذ يستوي لديه أن يكون هؤلاء المفكرون قد تأثروا خطي الغزالي وقلدوه

(32) حكمت هاشم، المصدر السابق، ص 147.

(33) سليمان دنيا، مقدمة كتاب التفاهات، ص 23 و 24.

(34) عبده الحلو، الغزالي، ص 62 - 63، وويل ديورانت، المصدر السابق، ص 362، والرفاعي، المصدر السابق، ج 1، ص 179.

(35) سليمان دنيا، المصدر السابق، ص 39.

(36) سليمان دنيا، المصدر السابق، ص 30.

في أفكاره، وانتما به في آرائه، وأن يكون التشابه بينه وبينهم من باب المصادفة المحضة وتوافق الخواطر، فانه إذا كانت الحالة الأولى يهتم لها المتعصبون للشرق ورجاله ويرون فخرا كبيرا في تتلمذ الغرب الحديث على الشرق القديم، فان الحالة الثانية لدى هذا المفكر أعظم شأنًا وأجل خطراً، إذ إن فيها برهاناً على أن الغرب الحديث بعد أن طوّف في آفاق المعرفة ما طوّف، قد انتهى به المطاف عند تلكم الأفكار التي فرغ الشك منها منذ زمن بعيد، وعلى أن الفكر في مراحلهِ الأخيرة قد عاد فأخذ الصورة نفسها التي كان عليها في مراحلهِ الأولى⁽³⁷⁾.

14 - ولقد كانت السببية أهم مسألة فلسفية تعرض لها الغزالي في التهافت فهو يقرر أن الاقتران فيها يعتقد في العادة سبباً وما يعتقد مسبباً، ليس ضرورياً، انه انن ينكر السببية في حوادث الطبيعة، وهو في ذلك شديد الشبه بالفيلسوف الانكليزي (هيوم)⁽³⁸⁾ الذي حذا حذو الغزالي في إنكار قانون السببية، ذاهباً إلى أنه ليس ثمة دليل عقلي لدينا على ضرورة وجود علاقة بين السبب والمسبب⁽³⁹⁾، أو بعبارة أخرى : لقد أنزل الغزالي العقل قبل هيوم بسبعة قرون إلى مبدأ العلية، وأنزل مبدأ العلية نفسه إلى مجرد التتابع. فالفلسفة والمنطق والعلوم لا تستطيع قط ان تثبت وجود الله أو خلود الروح، بل الإلهام المباشر وحده هو الذي يؤكد لنا هاتين العقيدتين اللتين لا قيام بغيرهما لأي نظام أخلاقي، وهو النظام الذي لا قيام لأية حضارة إلا به⁽⁴⁰⁾.

أتلج الغزالي من جهة أخرى صدور رجال الدين المسيحيين لما وجدوه في كتبه، بعد أن ترجمت إلى اللغات الأجنبية، من دفاع حماسي عن الدين، وعرض بليغ لقواعد التقى والصلاح لم يروا لها نظيراً⁽⁴¹⁾.

15 - كان اعتناق الغزالي لمذهب التصوف نصراً باهراً للصوفيين، ذلك أن أهل السنة قد أخذوا، من بعده بالتصوف، حتى طغت عقائد المتصوفة وقتاً ما على قواعد الدين، وأخذ الزهاد المتصوفة يهجرون حياة الأسرة، ويحيون حياة الأخوة الدينية بزعامة شيخ لهم، ويسمون أنفسهم الفقراء والدرأيش⁽⁴²⁾. ولعل ارتماؤه في حضن التيار الصوفي، وانصرافه الكلي إلى خوضه في الشطر الأخير من حياته، هو الذي حدا بالاسلام من بعده إلى التأثر بنزعة الصوفية أكثر من التأثر بنزعة العقلية. وقد لا يكون الذنب في ذلك، ذنب الغزالي، بل ذنب الفكر الاسلامي الذي كان الغزالي آخر مظهر من مظاهر فتوته، وأعنف وثبة من وثبات حرية، همد بعدها في الاستسلام إلى المشيئة الربانية، والتوكل على النفحات اللدنية. وقد يكون الغزالي نفسه مساهماً

(37) سليمان دنيا، المصدر السابق، ص 22.

(38) صليبا وعياد، مقدمة المنقذ، ص (ل)، ورفاعي، المصدر السابق، ج 1، ص 228.

(39) رفاعي، المصدر السابق، ج 1، ص 228.

(40) ويل ديورانت، المصدر السابق، ج 13، ص 363.

(41) ويل ديورانت، المصدر السابق، ص 365.

(42) ويل ديورانت، المصدر السابق، ص 365.

في شق هذا الاتجاه، إذ إن الهرم العقلي الذي اعترى الفكر الاسلامي من بعده، قد ابتدأ عنده في روحه، بعد أن ابتدأ الشباب يأفل في جسده⁽⁴³⁾.

لذلك لاحظ (مكدونالد) «أن الصوفية بلغت بفضل الغزالي مكانا ثابتا وطيدا في الاسلام»⁽⁴⁴⁾ ورأى (دوفو) «أن فؤاد الغزالي قد أدرك أن النظرية في علم التصوف لم تكن شيئا مذكورا، وأن العمل هو كل شيء تقريبا». لذلك ترك التدريس وفارق بغداد الى سوريا باحثا عن الاشراف والوجد، لأنها بلد تعلم التصوف. ولقد ناضل ضد الاثباتيين الذين ينكرون حقيقة الوجد، وضد الصوفييين الذين يغفلون عن العقيدة، فيغوصون في مذهب وحدة الوجود⁽⁴⁵⁾.

ثم ظهر، في أحوال مؤثرة للغاية، وبعد وفاة الغزالي بنحو من نصف قرن، ذاك التصوف ذو الطابع الافلاطوني الجديد الذي عرف عند ابن سينا باسم حكمة الاشراف، ظهر السهروردي المتوفى قبل 587 في : حكمة الاشراف وهياكل النور، وشهاب الدين السهروردي (539 - 632 في عوارف المعارف)، وظهر البسطامي، والكيلاني، وأحمد الرفاعي، مؤسس طريقة الدراويش الصخابيين ... وظهر كذلك محيي الدين بن عربي، أعظم متصوفي السنة، والذي لُقّب بالشيخ الاكبر، ومات في دمشق في عام 638 هـ بعد أن قدم لنا كتابيه (الفتوحات المكية، وفصوص الحكم).

لقد بلغت الصوفية بفضل الغزالي ونفوذه وتأثيره مكانا ثابتا وطيدا في الاسلام، كان كاتب الصوفية الاول⁽⁴⁶⁾ فلقد تخصص لأداب التصوف تخصصا جعله نسيج وحده بين رجال الفكر الاسلامي، ومزج الشريعة بالتصوف، كما مزج العبادات بروح من التصوف أطلق فيها النور والروح اطلاقا يبعث في القلب نشوة الايمان، وروعة الخوف، وفرحة الحس المطمئن الى واجبه المقدس⁽⁴⁷⁾.

16 - لقد عاد الغزالي الى الايمان بكل ما جاء في القرآن والحديث. ولقد شرح في كتاب (الاحياء) هذه العودة، ودافع عنها بكل ما كان له في شبابه من قوة وحماسة، أصبح بها أقوى عدة للمتشككة والفلاسفة الذين لم يواجهوا من قبل، عدوا أشد منه عنفا⁽⁴⁸⁾.

واختفت الفلسفة منذ أيامه، على الرغم من ظهور ابن رشد، وضعفت البحوث العلمية، وأصبح الحديث والقرآن دون غيرهما من العلوم، موضع اهتمام العقول الاسلامية وشغلها الشاغل. وعندما انتصر أهل السنة، على هذا النحو، خفت روح التساهل الديني، وعادت الى الوجود، القواعد الصارمة.

(43) كريم عزقول، المصدر السابق، ص 177.

(44) أحمد الشرباصي، المصدر السابق، ص 7.

(45) كارادوفو، الغزالي ترجمة زعيتن، ص 179.

(46) سرور، المصدر السابق، ص 56، نقلا عن مكدونالد.

(47) سرور، الغزالي، ص 67.

(48) ويل ديورانت، المصدر السابق، ج 13، ص 364.

وكان للغزالي فضله الكبير، في كونه أول عالم اسلامي أقدم على نقد الفلسفة بدرسها الكافي، والتعمق فيها التعمق الوافي. فقد خصص سنتين كاملتين لتحصيل الفلسفة اليونانية في القالب الذي عرضها فيه فلاسفة الاسلام، وسنة ثالثة لتمحيصها وتمييز الصواب من الخطأ فيها. أما غيره من علماء الكلام، فكانوا يكتفون بمعرفة جزئية لمذاهب الفلاسفة، ويشجبون الفلسفة والاشتغال بها شجبا اجماليا، قال الخوجة زاده، في التهافت الثالث : «لقد ابتدع من بين علماء الكلام طريقة غراء، واخترع رسالة عنراء، في ابطال أقاويل الحكماء»⁽⁴⁹⁾.

17 - ولقد أوتي الغزالي أسلوبا بارعا، وقلمًا ساحرا، وعرضا عبقريا، وتلك أسلحة فكرية رهيبة، عظيمة الخطورة، اذا وضعت في يد متهكمة مغرمة بالقتال، مغرمة بالبحث والجدال لعلها ترضي صباح الشك في أعماقها، أو ترضي الظمأ الى اليقين في روحها. فلا عجب اذا رأينا ملاحم متتابعة تنشب بين الغزالي وجيله، وهي ملاحم أضافت الى التراث الفكري كنوزا من المعرفة لا يزال شعاعها واضح النور والسناء⁽⁵⁰⁾.

وتغلب على أسلوبه السهولة في غير صنعة، والبساطة في غير كلفة، والمائية المنسربة في رفق، فلا ترى في كتابته شيئا من عنف البيان أو حبكة الصياغة، أو متانة النسيج، الا أنه يتبسط في شروحه كأنه يتكلم معك، أو يتحدث اليك في انطلاقة حلوة، وشطحات طوال، وغزارة مادة، ولا يهتم بالنظرية في الاسلوب أو بالتجمل بالثوب والاكسية، ولا يجفل أهو بادئ الجملة بالاسم والمبتدأ، أم مستهلها بالفعل لان كل همه منصرف الى الوصول الى قلبك من أقصر طريق، والنفوذ الى لبك بأيسر ما تكون العبارة وأجمل ما يكون الأداء إذا ما استوفى الموضوع، وتم له الافصاح، وتيسر البيان والاعلان.

وقد كان الغزالي حكيما ينبعث مع نفسه في ضرب من الترهيب ونواح من الترهيب، وقد اقتضى ذلك منه الاسلوب الخطابى المرسل على سجيته، المنطلق من أعنته، فكل ما حلا له قاله، وكل ما وجده على ضفاف خاطره، ملأ منه حتى الحافة وسقى الناس⁽⁵¹⁾.

18 - ولقد اعترض على ما وقع في كتابته من خلل، من جهة النحو، وروجع في ذلك، فأنصف من نفسه، واعترف بأنه ما مارس ذلك الفن، واكتفى بما يحتاج اليه من كلام، مع أنه يؤلف الخطب ويشرح الكتب بالعبارات. وأذن للذين يطالعون كتبه فيعثرون على خلل فيها من جهة اللفظ أن يصلحوه ويعذروه، فما كان قصده الا المعاني وتحقيقها، دون الالفاظ وتلفيقها⁽⁵²⁾.

(49) كريم عزقول، المصدر السابق، ص 141 - 142.

(50) سرور، المصدر السابق، ص 18.

(51) رفاعي، المصدر السابق، ج 2، ص 128 - 129.

(52) عبد الكريم العثمان، في كتابه (سيرة الغزالي)، نقلا عن عبد الغافر الفارسي، ص 46.

وأخذ عليه الترخّص في نقل الحديث مع موافقة المعنى، واعتذر عنه أن الكثيرين قبله وبعده قد فعلوا ذلك، وأنه حين ينقل الحديث بمعناه يشير إلى ذلك⁽⁵³⁾.

ولقد هوجم كثيرا، هاجمه ابن رشد في (تهافت التهافت) وابن الجوزي في (المنتظم في تاريخ الملوك والأمم)، وفي (تلبيس إبليس)، وكذلك ابن القيم.

ولقد عاب ابن رشد عليه مصارحة الناس بالحكمة، ومجاهرة الجماهير بآراء الحكماء وأسرار الشرع، واشتد في ذلك حتى سماه (الشرير الجاهل)، وقال في (تهافت التهافت) : «إن الكلام في هذه الدقائق مع الجمهور بمنزلة من يسقي السموم أبدان كثير من الحيوانات»⁽⁵⁴⁾.

ولعل في ذلك شيئا من الصواب وأشياء من التجني، فهذا الذي أخذه عليه ابن رشد من مصارحة الناس بالحكمة أمر جيد يحسب للغزالي لا عليه، فإن ما فعله من تسهيل الفلسفة وتبسيطها، وطرحها للناس كافة، أمر جليل القدر لا في تطور تفكير الغزالي فحسب، بل في تطور الفكر العربي الاسلامي أيضا.

19 - بقي أن نقول كلمة في جنسية الغزالي، فلقد ذهب بعضهم إلى أنه فارسي⁽⁵⁵⁾ لانه ولد في بلاد فارس ولانه يعرف الفارسية، ورد آخر بأنه عربي لوجود ثلاثة من أجداده سموا بمحمد، فلعلهم من العرب الذين نزلوا بلاد خراسان. والنقاش من منطلق العرق والدم لا معنى له، فالانسان ابن ثقافته، واللغة التي يفكر ويكتب بها. فالغزالي عربي لانه عاش في ظل الدولة العربية الباذخة في عروبتها ثقافة وتراثا ونتاجا، وهو قد ألف كتبه جميعا باللغة العربية ما عدا كتابين أنشأهما في كلتا اللغتين العربية والفارسية. واننا لنستعيد هنا ذلك المقطع الممتاز الذي أنهى به، أحد المستعربين، كتابه عن (المعجزة العربية) ففيه فصل الخطاب.

قال فانتاجو⁽⁵⁶⁾ :

«ومما لا شك فيه أن العلماء والفنانين لم يكونوا كلهم من دم عربي. ولكن ما أهمية هذا الامر ؟ فهل نظن أن كل من نسميه يونانا، هم من دم هيليني نقي ؟ لا أحد يزعم ذلك. فقد كان بينهم ليديون وكاريون ومقدونيون وسوريون. نسميه يونانيين لانهم كانوا يتكلمون أو يكتبون أو يفكرون باليونانية. كان ايزو قراط يقول : اليونان هم الذين يشاركوننا في تكوين ثقافتنا، لا الذين يشاركوننا في أصولنا».

(53) الرفاعي، المصدر السابق، ج 2، ص 132.

(54) الرفاعي، المصدر السابق، ج 2، ص 193 - 198.

(55) كريم عزقول، المصدر السابق، ص 36.

(56) ماكس فانتاجو، المعجزة العربية، الاصل بالفرنسية بعنوان : Max Vintajoux, Le Miracle Arebe, Chalote, Paris 1950.

ترجمه إلى العربية رمضان لاوند، دار العلم للملايين، بيروت 1954 والنص 101 من الترجمة العربية.

فعلى الرغم من فوارق الجنس والعصر والأزياء واللهجات، تسمح لنا العبقريات المختلفة كالخوارزمي وابن سينا وابن رشد والغزالي، ولمجرد كونها قد فكرت باللغة العربية، أن نسمي العصر الذي عاشت فيه (القرون الوسطى العربية)، تماماً كما نسمي العصر السابق باسم (العصر اليوناني).